

علوم البلاغة في الجامعة

للأستاذ علي الماري

- ٣ -

تحدثت في المقال السابق عن الأسلوب الذي تدرس به البلاغة العربية في الجامعة ، وعبت أن يكون هذا الأسلوب الماري الركيز هو الذي يلقى على طلبتها ، وتنقصته بأنه يفسد ذوق التلاميذ ، وبأنه لا يتفق وطبيعة النصوص العربية الفصيحة ، ولا سيما كتاب الله الكريم .

وقد سمعت بعض الاعتراضات على ما كتبت ، فسمعت من يقول إن هذه محاضرات أقيمت على طلبية صغار لم يتعدوا مرحلة التعليم الثانوي إلا منذ قليل ، ولم يشذوا من علوم البلاغة إلا تنقاً بسيرة . ونسى هذا القائل أن طلبية الجامعة تلقوا في المرحلة الثانوية كتباً ذات بال في علوم البلاغة ، وفيها من النصوص العربية الفصيحة العالية ، ومن الأسلوب المذهب الطيب ، ما يهيبهم لأن يتلقوا أسلوباً أرق وأصح ، وحسبك أن تنظر فيما يدرس في المدارس الثانوية من كتب في هذا الفن لترى أن أسلوبها أرجح وأقوى من هذا الأسلوب الذي نقلنا مقتطفات منه في المقال السابق ، وحتى لو كان الطلاب لم يتلقوا في المرحلة السابقة شيئاً يذكر لكان لزاماً على أستاذ البلاغة في الجامعة أن يكون مثلاً لهم في حسن التعابير ، وجمال اختيارها ، وإذا كان لا بد من

وبعد ، فإن نوعاً يخرج محمداً وأولى الزم من الرسل والحكماء والصديقين والعلماء والرواد المجاهدين ، جدير بأن يؤثق به ويؤمن بقيمته ، فإن مقياس قيم الأنواع هو لسانها وجوهرها ، وثمر الشجر أقل ثمر . عدداً فيه ، والشوك يكون مع الورد ، والظلام مع النور ، والفساد وسيلة لإدراك الصلاح والحفاوة به .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فالخير أيضاً فتنة ! هذي طباع الناس معروضة تغالطوا العالم أو قارقوا !

عبر التعميم

أسلوب عامي ، فليكن أسلوباً مهذباً لا نقاً . وإن علماء النفس يحدثوننا عن تداعي الماني ، وعما تلقية الكلمات من الماني والظلال في نفوس السامعين ، والأستاذ الخولي مؤمن بهذا ، فهل يستطيع أن يحدثنا عما تحمته الكلمات من أمثال قوله عن محمد وجميع الأنبياء أنهم (سماء بوسنة) أو قوله شارحاً قول الله عز وجل (وما أنت بمسمع من في القبور) : (أنت مش قدام ناس . انت قدام ألواح وبيهم) وماذا تنشره من ظلال ، وماذا تستجليه من معان في نفوس تلاميذه ؟ وسمعت من يقول إنه لا بأس أن يكون هذا الأسلوب أداة التعليم في الجامعة ، والأسلوب الماري ما دام لم يكتب في كتاب وإنما يلقى في درس في حجرة فلا غبار عليه . وجوابي على هذا أني أنكم عن تدرسي فن البلاغة في الجامعة لا عن تدرسي الجغرافيا في المدارس الابتدائية ، أما الثالث فيقول : إن اللجوء إلى نقد الأساليب تهرب من نقد الآراء ، وهذا ولا شك جاهل أو متجاهل قيمة الأسلوب في تكوين أذواق التلمذ بل وفي أخلاقهم وعاداتهم أيضاً . على أني - بحول الله وقوته - ماضٍ في نقد ما نضمته مذكرات الأستاذ الخولي في علوم البلاغة من آراء في قواعدها أو فهم في النصوص الأدبية ، ولنبدأ بمذكراته في علم البيان .

والفكرة التسلطة عليه في هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته متبناً لمعان نفسية يجب أن تثيرها في نفس المتكلم أولاً ، وفي نفس السامع ثانياً ، وهو لذلك يتكلف العنت ، ويركب الشطط في تخرج النصوص الأدبية . وهو لا يؤمن بالماديات البهرقة في هذا الفن ، ويكاد ينكر المحسات التي لا تثير معاني نفسية فيقول الشاعر مثلاً :

تجهز فلما أن تزور ابن ضايء عميراً ، وإما أن تزور الهلبا
هما خطلتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهباً
لا يرى لهذا التشبيه معنى ، لأن الشاعر لم يزد على أن فضل

الفرس في البياض على الثلج دون أن يلاحظ العلاقات المعنوية بين التشبه به والتشبه ؛ فتراه يقرأ مثلاً حين يتكلم عن أغراض التشبيه « ومنها بيان حاله كما في تشبيه ثوب بأخر في السواد » الخ . هذه عبارة الخطيب القزويني صاحب الإيضاح . فيعلق عليها الأستاذ قائلا : هذا كلام فارغ ؛ لأن الإنسان حين يشبه السواد

الأولى — أنه يدرس التشبيه ؛ ومضى ذلك أن يقف عند تشبيه الشاعر . هل أصاب أو أخطأ في إلحاق هذا اللون بذاك . أما أن الشاعر لم يلتفت إلى ما يهيج به البنفسج من المعاني في النفس والتفت إلى شيء ، مادي بحث فهذا لا دخل له في صحة التشبيه أو فساد .

الثانية — أن البيان يبحث عن الأساليب الفنية التي تؤدي بها المعاني ، وما دام يبحث عن الفن فهو يبحث في المعاني البهجة ويبحث كذلك في الماديات البهجة ، وليس أحدهما بأولى من الآخر في إبراز الفن البياني فيه ، وعلى ذلك فهم علماء البلاغة ما ورد من هذه الأمثلة . ولما أتاني بالقول الفصل حين نسوق ما قاله إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجاني في هذا الموضوع بعينه : « وهكذا إذا استقرت وجدت التباعد بين الشيتين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك موضع الاستحسان ومكان الاستظراف ، والمثير للدين من الارتياح ، والتألف للناظر من السهرة ، أنك ترى بها الشيتين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله : ولا زرودية ... الخ أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع ، وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ؛ لأنه إذا كان تشبيه لنبات غرض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار في جسم مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف ، ومبني الطبايع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يمد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صباية النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر » . وليس بعد كلام الشيخ كلام ، ولكن لعل شيخ الجامعة يتهمه بفساد الذوق ، ولو أنه أعاد وأبدا ، واحتج بنظرية نفسية كانت الأستاذ ينكر أن المتقدمين تنبهوا لمثلها ، والأمور أوضح من أن يشرح ، فالشاعر أراد أن يبين زرقه البنفسجة التي تفخر بها على اليواقيت الحمر ففكر في شيء لهذه الزرقه ، وهنا يتفاضل الشعراء فهم من يكون قوى اللفتة فسرعان ما يقع على شيء ولو كان نادر الحضور في الدهن ، ومن هنا تجيء طرافته وجدته ، ومنهم البليد الذي لا يصل إلى التشبيه إلا بعد حين وربما لا يصل ، وإذا كان من

يلحظ فيه الانتشار والتغطية والاهتمام ، أي أثرًا نفسيًا يقع من رؤية هذا السواد ، وعلى هذا الملحظ يشبه الليل « . لا يا مولانا ، هذا شيء وذلك شيء آخر ، نعم قد يلاحظ المشبه بالسواد المعاني التي يثيرها في النفس ، ولكن لا بأس أن يلاحظ مشبه آخر مجرد السواد . وليس هذا بالكلام الفارغ ، وهو من أساليب العربية المقبولة ، بل رقى طبائع الناس أيضًا ، فهم لا يزالون يلحظون شيئًا بنىء في البياض أو الحمرة أو السواد أو ما شاءوا من لون ، ولعله يلفت النظر إلى هذا التهجم الجائر على كلام العالم العلامة الخطيب التزويني ، ومن معه من علماء البلاغة حين يقول (هذا كلام فارغ) ، ولا شك أن مثل هذا يعجز عن أذهان المعلمين ما لمؤلاء من هيبة وجلال ، وبذلك لا ينتفعون بما كتبوا وألفوا ما داموا يحقرونهم ويسمعون من أستاذهم هذا التنقص لهم ، والغرض منهم .

وقد ذهبت به هذه النظرة الجائرة إلى أن ينكر نوعا من التشبيه قد أطلال علماء البلاغة ونقده الأدب في امتداحه ، يقول : « ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت كأنها فوق قامات ضعفن بها أوئل النارق أطراف كبريت » المشبه زهرة البنفسج قاعة على ساقها ، والمشبه به أوئل النار في أطراف كبريت ، إذا أردنا أن نحلل عملية التشبيه لقلنا إنه شعر للبنفسج بجمال فترجم عنه ، ونحن نفهم أن الجميل قادر أن يلتفت معنى وراء وجوده المادي ولكن الشاعر لم يتخطى الوجود المادي نظر إليها على أنها زهرة لها حجمها الخاص ولونها الخاص ، وقال كلاما شرح به هذا الوضع المادي (كأوائل النار في أطراف الكبريت) أولا : ما هو الشيء الممتوى الذي لفتت إليه الزهرة الجميلة ؟ لا شيء . زهرة البنفسج هذه يمكن أن نحس أمامها بنوع من الانصراف عن التنبه واليقظة ، فإذا شبهتها بإنسان حالم تكون قد تذوقت اللون طعما خاصا من طعموم الحياة ؛ وبذلك تكون المادة قد أفلحت في إيجاد المعنى . أما وصف اللون بلون آخر فلا شيء . ثانياً : نلاحظ أن الشاعر نقلنا من جو فسيح إلى جو ضائق فليست هنا قوة في الإحضار ، وإنما هي غفلة وسوء تصرف . قد يبدو هذا الكلام مقنعا ورائعا لأول وهلة ، ولكن يجب أن نتذكر حقيقتين :